هــدف الفــن

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ٢٣ سبتمبر ١٩٧١

يحتَّلُ الفن مكانةً خاصة فى حياة الإنسانية سواء كانَت هذه المكانة فى تاريخ الحضارة أو تاريخ الأفراد. وقد يستبِّدُ بالكثيرين مِمَّن لا يرَوْنَ للفن معنى أو غاية العَجَبُ من أولئك الذين عشقوا هذا النوع المُتميز من المعرفة والممارسة البشرية ونذروا حياتهم للعَيْش فى عالمِه .. تماما كما يهَبُ الراهبُ نفسه للعيش فى محراب التبتل والتعَبُّد لخالقه أو كما يهب العالِم حياته ليقضيها بين جدران معمله وصفحات كتبه. وإذا كانَ موقفُ التعَجُب أو الإستنكار هذا مَمَّا لا يمكن قبوله من الآخرين عندما يتعلَّق الأمرُ بالدين أو العلم حيث يمكن البرهنة على صحة أو خطأ مفاهيم أو إفتراضات أيٍّ منهما بالحَدْسْ وبالمنطق أو بالتجربة إلاَّ أنه فى عالم الفن يصبح الأمرُ مختلفاً تماماً. فالذين لا يفهمون للفن معنى سيَبْدُونَ فى نظرِ عاشِقيه مساكين تنقصُهم هذه النعمة الإلهية والذين يعيشون بالفن سَيَبْدونَ فى أعْيُن مَنْ لا يعترفون به حَمْقَى يضيِّعون حياتهم فيما لا يُفيد. وقد يبدو الرأىُ الأول صائباً إلى حَّدٍ ما أمَّا الرأىُ الثانى فهو بالقطع ليسَ صحيحاً إذا ما أمعَّنا النظرَ فيما عادت به الفنونُ من خير وفائدة على الإنسان والحضارة على مَرِّ العصور.

والحقيقة أنَّ الحديث عن الفن أمرُ بالغ الصعوبة ذلك أنَّ الإحساسَ بالفن وهو أمرُ لازم قبلَ الكتابة عنه إنما هو خبرة ذاتية من الصعب إن لم يكن مستحيلاً نقلُها الى الآخرين وربَّما كان هذا هو سبب التناقض الحاد بينَ رأى كلٍ من عُشَّاق الفن وأولئك الذين لا يحبُّونه فيه. فنشوة الشاعر أو الروائى أو الرسام أو الموسيقى تنبع أساساً ـ كما أحس وكما أظن ـ من الإحساس بالقدرة على خَلْقِ عالمِه الخاص الذى يريد أن يحيا فيه بعيداً عن واقع لا يستطيع أن يتكيف معه أو يتحمل العَيْشِ فيه. فعندما يرغبُ الفنان فى أن يحيا فى عالمه الخاص يكفيهُ أن يقرأ ما يكتب ويتأمل ما يرسم ويترنم بما يفيض به خياله من أشعار وأنغام. وهذا العالَم الخاص الذى يتمنى كلُّ إنسان أن يحيا فيه كما يشاء أمرُ محال فى عالم الواقع ولكنه حقيقة ملموسة فى خيال الفنان.

ورُغم التبايُن الصارخ بين التعريفات التى لا يمكن حصرُها لنواحى الفن المختلفة وخاصةً أهدافِه ومراميه إلا أن التمعُّن الفِطْرى فى هذا الجانب الأساسى من الفن لا يمكنه التغاضى عن أن الفن الجميل الخالد هو الفن الهادف وكذلك لا يمكنه تجاهُل أن المعنى الواضح هو عِمادُ الفن الهادف أيا ما كان شكل هذا الفن. أما ما يُردده كُتابُ الكلام الغامض ـ سواء كان شعراً منثوراً أو نثراً مشعوراً فلا فرق ! ـ بأن المعنى فى بطن الشاعر أو فى مُخيلة الكاتب فإنه يعنى ضمن ما يعنى أن ما يقولونه أو يكتبونه إنما هو كلام بغير معنى ولا سبيل إلى معرفة مقصده لأن معناه فقط يعرفه قائله أو كاتبه.

كما أن الشكل الجميل أيضا عمادة لا غنى عنها فى جميع أشكال الفنون. و قد يتخذ هذا الجمالُ مقاصدَ عديدة مختلفة بل وربما تكون متناقضة أحياناً. فقد يكون جمالا حسيا مباشرا مثلما هو الحال فى الرسم أو الموسيقى وقد

يكون جمالا متضَمنا فى المعانى المقصودة من العمل الفنى كتضمين معانى القيم والمبادىء كالخير والحق والعدل والتسامح .. الخ كأهداف للعمل الفنى أو قد يتخذ شكلا مُغايراً بتصوير جوانب الشر والقبح والإنحلال التى تعِجُّ بها جوانبُ الحياة المختلفة بشكل مُنفر يدفعُ المتأمل لها إلى تجنُّبها وتوقيها.

ومن نافلة القول إن جمال الشكل يستلزم ضمن ما ينبغى جمال المعنى وجمال المبنى أيضا أى الإلتزام بالقواعد المعروفة للغة التى يستخدمها الفنان. وربما يكون عدم الإلتزام بهذه البديهيات مصدرا للعبث والقبح والإنحطاط الذى يميز مُجْمَل الأعمال التى تنتشر فى شتى مجالات الأنشطة البشرية التى ينسبها صانعوها إلى الفن والأدب والتى لا أستطيع إعتبارها كذلك. فالفن بغير معنى هو عبث ولغو والفن بغير جمال هو قُبْح وإنحطاط والفن بغير خير يعتبره هدفاً له هو هُراء لا طائلَ من ورائه.

فالفن للفن مقولة لا تصلح إلا مع فنون الموسيقى والرسم والزخرفة وما إلى ذلك من أشكال يحس كل إنسان بمعناها الخاص كيفما شاء أما الفن للخير بغض النظر عن الشكل الذى يسلكه تجاه هذا المقصد فهو الفن الجميل الخالد الذى يظل دوما منبعاً دافِقاً لا يجف ولا ينضب ويظل دائما واحةً وارِفَة الظلال يلجأ إليهما كلٌ من أنهكته المعاناة فى خضم الحياة بحثا عن لحظات من السعادة والأمل يتهيأ بها لمواصلة الطريق.

